الفارابي وتوماس موروس

او

المدينة الفاضلة وجزيرة «الطوبى»

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربيّة في كليّة القديس يوسف

غريبة عقليّتنا نحن اهل الشرق! الا نرى اثرًا نفيسًا من آثار الفكر البشري إلّا قلنا إنّا السابقون إليه ؛ ولا نحسّ بمظهر من مظاهر المدنيّة الحقّة إلّا زعمنا انّه مأخوذ عنّا ؛ ولا نسمع بذكر عظيم في تاريخ الشعوب إلّا اشتغلنا في تقريبه منّا او فتّشنا له عن اصل عربي ، ان لم يكن في زوايا التاريخ ، ففي خفايا الاساطير

وهكذا فقد انصرفنا عن التفكير الشخصي النافع ، الى الابحاث العقيمة ، والمقابلات السطحية ؛ فربّينا في عقلنا ميلًا الى الادّعاء وخيمًا ، وفخرًا باسلافنا ألهانا عن مجاراة العصر . فكنّا ندّعي ، ونصدّق ، ونفخر بان اوغسطينوس وشكسبير من اصل عربي : الاول لشابهة اسمه « لابي القادر » والثاني لسهولة تصحيفه « بالشيخ اسبر » ؛ وأن سرفنتس نقل « دون كيخوته » عن اصل عربي ؛ وان دانتي وملتون نقلا ملحمتيهما عن « رسالة الغفران » (١ . . . وقد تجاوز هذا الادّعاء العقيم محيط العقليّات الى مجال المظاهر الاجتماعيّة ، فاضحى الفينيقيون اوّل من اكتشف اميركا ، واصبح كايس رئيس جمهوريّة المكسيك ، لبناني الاصل من أسرة الكلّاس ، وصار الملاكم توني من عائلة توما الاهدنيّة . . . الى غير ذلك من الملاحظات المضحكة التي ، لو افترضنا صحّتها ، لما افادتنا شيئًا سوى الاتّكال على فخر السلف ، والقعود عن السعي الشخصي.

---

١) قد نرد فنفرد درسًا خاصًّا للمقابلة بين دانتي وابي العلاء بل بين « المنزلة الالهية » و« رسالة الغفران »

ولعلّ اغرب ما صادفنا من الادّعاءات العقليّة في الشرق ، ما قرأناه في احدى الصحف المصريّة من ان توماس موروس ، وزير انكلترّا في اوائل القرن السادس عشر ، نقل كتابه المعروف «بالرحلة الى جزيرة الطوبى» ، عن كتاب ابي النصر الفارابي الموسوم «باراء اهل المدينة الفاضلة».

وقبل ان نفاجئ المطالع بالبحث في هذين الكتابين نرى من اللازم ان نتعرّف الى الكاتبين فنقول :

ابو النصر الفارابي فيلسوف عربي اللغة ، تركي الاصل ؛ وُلد في نواحي مدينة فاراب من بلاد ما وراء النهر نحو سنة ٨٧٠م. ثم هبط بغداد ، دار العلوم اذ ذاك ، فتعلّم العربيّة وحضر مجالس يوحنا بن حيلان الطبيب المسيحي ، فدرس عليه الطب . وكان يتردّد ايضاً الى مجالس ابي بشر متى بن يونس المترجم المسيحي ، فاستفاد من محاضراته الشيء الكثير ، لاسيما في ما يختصّ بشرح ارسطو . وبعد ان نال من علوم عصره القدر الوافي ، قصد بلاط سيف الدولة ابن حمدان في حلب ، وكان هذا الملك مشهوراً باكرام العلماء والشعراء واصحاب الفنون ، فاكرمه وقرّب مقامه . ثم استصحبه الى دمشق حيث توفي سنة ٩٥٠

وكان الفارابي قد اشتغل بجميع المعارف المعهودة ، شأن علماء ذاك الزمان ، فترك التآليف العديدة في كلها ؛ مما اكتسب له لقب «المعلّم الثاني» اي الاول بعد ارسطو . ولكن لم يصل الينا من آثاره الّا نحو اربعين كتاباً منها ٣١ باللغة العربيّة ، و ٦ بالترجمة العبرانيّة ، واثنان بالترجمة اللاتينيّة (١ . واكثرها يبحث في الفلسفة والمنطق والسياسة (٢ والتعاليق المختلفة على فلاسفة الاقدمين ، ولاسيما ارسطو . على ان اشهر هذه المؤلفات كتاب الموسيقى الذي نشره ودرسه المستشرق كرسيفارتن ، وكتاب المدينة الفاضلة او آراء اهل المدينة الفاضلة ، وهو موضوعنا في هذا المقال.

---

١) راجع Carra de Vaux : les Penseurs de l'Islam – t. IV, Paris, 1923 – p. 8 وقد نقل ذلك عن بروكلمان

٢) نُشر هذا الكتاب بعناية الأب لويس شيخو في المشرق (٤ [١٩٠١] : ٦٤٨ و ٦٨١)

اما توماس مور ، او توماس موروس فكان من رجال السياسة والادارة في انكلترا . وُلد في لندرا سنة ١٤٨٠ . وبعد ان بدأ بالمحاماة والقضاء ، انتخب نائباً في البرلمان الانكليزي ، فلم ترق سياسته للملك هنري السابع ، فترك الكاتب انكلترا . ولم يعد اليها الّا بعد جلوس هنري الثامن ، فاتصل به واخذ يرتقي من منصب الى منصب حتى اصبح وزيرًا اول او كنشليارًا اول كما كان يُقال . ولكن الكاتب لم يتمتّع طويلًا بهذا المقام . اذ رغب هنري الثامن في طلاق امرأته كاترين داراغون كي يتزوّج احدى وصيفاتها المدعوّة حنّة دي بولين ، وارسل يطلب اجازة من الحبر الروماني . فرفض هذا تحليلَ امرٍ تحرّمه الكنيسة مهما كانت شخصيّة الطالب . عند ذاك حصل الانشقاق العظيم ، ونادى عاهل الانكليز بسلطته الدينيّة مجبرًا جميع الاكليروس على بيعته والقسم باطاعته . ولما كان توماس موروس من اقوى الكاثوليك تمسّكاً بايمانه المستقيم ، واسرعهم طاعة لحبره الاعظم ، رفض بيعة مليكه برباطة جأش . فهبط من ذاك المنصب الرفيع ، ولم يلبث ان حُكم عليه بالاعدام فقُتل على المِقصلة في ٧ حزيران ١٥٣٥

وكان من حظّ الآداب ان ربحت من تراث هذا الفاضل ، فضلًا عن بعض قصائد ومقالات متفرّقة ، كتابين مهمّين : اولهما باللغة الانكليزية في تاريخ ريكاردوس الثالث ، وهو الذي استفاد منهُ شكسبير في انشاء مأساته . والثاني باللغة اللاتينيّة وهو « الرحلة الى جزيرة الطوبى » الذي نُشر لاوّل مرّة في حياة المؤلف ، سنة ١٥١٦

سمّى موروس جزيرته « اوتوبيه » (Utopie) من كلمتين يونانيّتين : (أو = للنفي وتوبوس = مكان) فيكون معنى الكلمة المركّبة «لا مكان» او المكان الذي لا وجود له . وهي نكتة من مبتكرات المؤلف التي عدّدها في هذا الكتاب كما نرى في سائر الاعلام الموجودة فيه . على ان اللفظة سارت في الآداب الغربيّة كلها ، واصبحت مرادفة لمكان او نظام وهمي ، ينال من يعيش فيه السعادة الكاملة . وهذا المعنى الثانوي هو الذي دفعنا الى اختيار لفظة « الطوبى » لترجمة « اوتوبيا » وهي ، فضلًا عن كونهما تجاور الكلمة

العربيّة في اللفظ ، فانهـا تفيد بمعناها العربي مـا آلت اليه تلـك الكلمة في الاستعمال الاجنبي .

ولنعد الآن ، وقد عرفنا الكاتبين ، الى البحث في مضمون كتابيهما وما بينهما من الشبه :

اما ان تكون الفكرة متشابهة بين الفيلسوفين فذلك ما لا شكّ فيـه ؛ بل لا عجب فيه ؛ لان كلًا منهما قد اطّلـع على « جمهوريّة افلاطون » (١) ؛ وهي الينبوع الفيّاض لكل مـا ألف في الآداب من هذا النوع . واما ان يكون الكاتب الانكليزي ، في القرن السادس عشر ، نقل الفيلسوف العربي ، في القرن العاشر ، كما زعم بعض المتأدبين فهو مـا ننفيه بتاتاً . ولا نتكلف لذلك صعوبة الدرس الخارجي التـاريخي ، فنبحث في ما اذا كانت « المدينـة الفـاضلة » مترجمة في عهد موروس ، وفي ما اذا امكن لموروس ان يعرفهـا ويقرأهـا ويستعين بها . فنحن اقرب الى البرهـان من السير على هذه الطريق الوعرة في الابحاث . فنكتفي لذلك بان ندرس المؤلفين درساً داخليًا فنحلّلهما ، ونبحث في افكار الكاتبين ؛ ومن ثمّ نرى وجه الشبه بينهما ، اذا كان هناك للشبه من وجه :

كتاب الفارابي في « آراء اهل المدينة الفاضلة » (٢ يؤلف مجلـدًا صغيرًا يجاور المئة صفحة متوسّطة . يبدأ فيه الفيلسوف بـدرس كلامي نظري في « الوجود الاول » وصفاته ، ونفي الشريك والضدّ والحدّ عنه . ثم يفصّل الكلام « في الموجودات والاجـسام التي لدينا » حتى ينتهي الى النفس واجزائها وقواها .

---

١) زعم الدكتور طه حسين ان العرب لم يعرفوا « جمهورية » افلاطون — اطلب : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية (ترجمة محمد عبدالله عنـان) مصر ١٩٢٥ — ص ٥٣ . على ان تاريخ الادب يذكر ان هذه « الجمهورية » تُرجمت في العصر العباسي ، على عهد خلافة المتوكل ، ترجمها حنين بن اسحق ، الطبيب النصراني البادي — راجع في ذلك

Cl. Huart: Littérature arabe — 4e éd. - Paris 1923 — p. 280 et Carra de Vaux : op. c. p.3

٢) نُشرت هذه الرسالـة بعناية المستشرق ديتريشي (Ed. Dieterici) في ليدن سنـة ١٨٩٥ بعنوان « Alfârâbi's Abhandlung der Musterstaat » ثم نشرت في مصر سنـة ١٣٢٣هـ. (١٩٠٥م.) بعرفة الشيخ فرج الله زكي الكردي ، والشيخ مصطفى القبّاني الدمشقي

فاحتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون . وهنا يُقابل بين المركّب الانساني ، من نفس وجسد ، والمركّب الاجتماعي . ويجرّه ذلك الى البحث في قوى المجتمع واعضائه . ويعطي للشخص الفاضل بين الناس شبيهاً فاضلاً بين المجتمعات ألا وهو « المدينة الفاضلة » فيقول :

« والمدينة الفاضلة تُشبه البدن التامّ الصحيح ، الذي تتعاون اعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان ، وعلى حفظها عليه . وكما ان البدن اعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى ؛ وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب . واعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جُعلت فيه ، بالطبع ، قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو ، بالطبع ، غرض ذلك العضو الرئيس . واعضاء أخر فيها قوى تفعل افعالها على حسب اغراض هذه ، التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة ، فهذه في الرتبة الثانية . واعضاء أخر تفعل الافعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه الرتبة الثانية . ثم هكذا الى ان تنتهي الى اعضاء تخدم ولا ترؤس اصلاً . كذلك المدينة اجزاؤها مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات . وفيها انسان هو رئيس ؛ وآخر يقرب مراتبها من الرئيس . وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس : وهؤلاء هم أولو المراتب الأول . ودون هؤلاء قوم يفعلون الافعال على حسب أغراض هؤلاء . وهؤلاء هم في الرتبة الثانية . ودون هؤلاء ايضاً من يفعل الافعال على حسب اغراض هؤلاء . ثم هكذا تترتّب اجزاء المدينة الى ان تنتهي الى أخر يفعلون افعالهم على حسب أغراضهم . فيكون هؤلاء هم الذين يخدُمون ولا يُخدَمون ، ويكونون في ادنى المراتب ، ويكونون هم الاسفلون . »(١)

وهكذا فيكون البحث في المدينة الفاضلة الى عرضاً يدفعه سياق التشبيه المستوفى . فيتضح من ثمّ انّ الفارابي لم يعمد الى وضع كتاب خاصّ يبسط فيه نظريّته في المثال الاجتماعي كما فعل موروس . وهذا اول فرق بين الكاتبين نراه في المقصد او الغاية التي ارادها كلٌ منهما .

---

١) آراء اهل المدينة الفاضلة – طبعة مصر – ص : (٧٨–٨٠)

واذا درسنا طريقة كل من الكاتبين في وصف مدينته نرى الفرق لا يقلّ عنه في غايتيهما . فبينما نسمع الفارابي يتابع ملاحظاته الفلسفية عن اشكال مدينة لا تخرج من محيط المعقول والنظريات ، نشاهد موروس يتوقّف امام كل مظهر في جزيرته المحدودة المعروفة ، فيطلعنا على كل ما يفكر به ، بطريقة تصويرية لا التباس فيها ، ولا غموض ، ولا تردُّد .

ولا بدَّ لنا هنا من ايراد تحليل سطحي لمضمون كل من الكتابين:

يبدأ الفارابي آراءهُ بذاك التشبيه المعروف ثم يقسم ما يلي الى ١١ فصلاً :

١ – القول في العضو الرئيس
٢ – القول في خصال رئيس المدينة الفاضلة

ويرينه « رئيس المصورة من الارض كلها » ويوجب عليه ان يتصف باثنتي عشرة خصلة « قد فُطر عليها » وهي ان يكون : تامّ الاعضاء ، جيّد الفهم والتصوّر « بالطبع » ، ذكيًّا ، حسن العبارة ، محبًّا للتعليم والاستفادة ، غير شره ، متجنّباً للعب « بالطبع » ، مبغضاً للذات ، محبًّا للصدق مبغضاً للكذب ، كبير النفس محبًّا للكرامة ، محبًّا للعدل واهله ، مبغضاً للجور والظلم واهلها ، قوي العزيمة . ولكن الفارابي يدرك ان اجتماع هذه الصفات كلها في انسان واحد غير ممكن . ولذلك فهو يسمح انه « اذا لم يوجد انسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط ولكن وجد اثنان : احدهما حكيم ، والثاني فيه الشرائط الباقية ؛ كانا هما رئيسين في هذه المدينة . » واذا تفرّقت الشروط في عدة اشخاص كانوا كلّهم رؤساء . واذا لم يكن في الشخص المتوفي جميع الشروط ، شرط الحكمة المهمّ ، بقيت المدينة بلا ملك » . . .

فيظهر نقص هذا الاسلوب من حيث الادارة والسياسة ، وتردّدهُ ، واقتصاره على النظر الفلسفي المحض . واين هذا من وضعية تصوير موروس لجزيرته وطريقة ادارتها ؟ واساليب حكّامها ؟؟؟

٣ – القول في مضادات المدينة الفاضلة
٤ – القول في اتصال النفوس بعضها ببعض
٥ – القول في الصناعات والسادات .

وهنا يظن المطالع ان الاجتماعي العربي سيبحث بحثاً وضعياً مفيداً في الاختبار الانساني ، وطريقة اشغال اهل تلك « المدينة الفاضلة » ، مع التفصيل في شرح صناعاتهم ، واساليب معيشتهم التي تنيلهم السعادة . ولكن لشدّ ما يخيب ظنه اذ يرى الفيلسوف يهتمّ خاصة بالتقاسيم الكلامية من ان « السجايات تتفاضل بثلاثة انحاء : بالنوع ، والكمية ، والكيفية . » ويقيس على هذا المبدأ تفاضل الصنائع فيطبقها على مختلف المهن بطريقة عامّة لا تختصّ بشعب دون آخر

٦ – القول في اهل هذه المدن

والمقصود « بهذه المدن » المدن الجاهلة التي تبقى انفس اهلها « غير مستكملة بل محتاجة في قوامها الى المادة ، ضرورة ؛ اذ لم يرتسم فيها رسم حقيقة شيء من المعقولات الأول اصلاً . » الى غير ذلك من الاعتبارات الفلسفية العامّة

٧ – القول في الاشياء المشتركة لاهل المدينة الفاضلة

وهي اولاً « معرفة السبب الأول ثم الاشياء المفارقة للمادّة . . . ثم الجواهر السماوية . . . ثم كون الانسان . . . » الخ . وكلها صفيات لا تخرج عن محيط العقليّات ، وتبعد كثيراً عن المرافق الاجتماعيّة التي يتّبع في بسطها علماء العمران .

٨ – القول في آراء المدينة الجاهلة
٩ – القول في العدل
١٠ – القول في التشوع
١١ – القول في المدن الجاهلة

وهذه الاقسام الاربعة يتّحد بعضها ببعض فيظهر الفرق بين اهل المدينة الفاضلة واهل المدن الجاهلة ، التي تنقسم الى اقسام عديدة ايضاً . وهذا الفرق لا ينظر اليه الفارابي الا من حيث الآراء والمبادئ العامّة كالاعتراف بالخالق او انكاره ، ومحبة العدل او كرهه ، وطبيعية اقتران النفس بالبدن او استحالته ، ومحسوسية الموجودات او معقوليتها الخ . . .

والخلاصة ان كل هذه المدن التي يتكلم عنها الفارابي هي ، في عرفه ، عقلية محضة . وهو لا يريد ان يمنحها نظاماً اجتماعياً عملياً ، اذ لم تكن هذه غايته ؛ بخلاف ما نتحقق عند موروس الذي يقسم كتابه الى قسمين عامين : في الاول يذكر التقاءه بالرجل الذي زار جزيرة الطوبى واقام فيها مدة . وفي القسم الثاني يذكر وصف هذه الجزيرة بلسان من درسها واختبر احوال اهلها . وهذا القسم ، وهو كل النظرية ، يتفرع الى تسعة فروع .

١ – وصف جزيرة الطوبى . وذكر طريقة حكمها .

ومن اول سطر نشاهد جزيرة كائنة ، موصوفة بغاية ما يمكن من الدقة ، فنعرف ان مدارها يبلغ ٥٠٠،٠٠٠ قدم وان قطرهـا يبلغ ٢٠٠،٠٠٠ ، وان عرضها يضيق في الجانبين اللذين يؤلفان رأسين متقدمين في البحر ، تنفرج بينهما نصف دائرة على شكل الهلال .

فأين غموض الفيلسوف العربي ، من تدقيق هذا الجغرافي الذي يتابع التحقيق نفسه في وصف كل ما يذكره من جزيرته الوهمية . . .

٢ – وصف مدن الطوبى وخصوصاً عاصمتها مدينة « أمورت » (١

٣ – في إدارة الاحكام وفي القضاة .

٤ – في الصناعات والصناعيين .

وهنا يظهر الفرق في اجلى مظاهره بين طريقة الكاتب الانكليزي الذي ينظر الى عمله نظر الاجتماعي فيصور مظاهر الهيئة الاجتماعية بكل دقة ، ذاكراً كيفية تقسيم الاشغال على السكان ، والساعات ، والايام ، والاسابيع ، في تلك الجزيرة ؛ وطريقة الكاتب العربي ، الذي ينظر الى عمله كما ذكرنا ، نظر الفيلسوف العقلي المتكلم فلا يرى من امور الصناعات الا درجاتها وتفاضلها في الكيفية والكمية والنوع .

١) أمورت : اخذ الكاتب هذه اللفظة من اليوناني (اموروس = مظلم) وازاد بها المدينة التي المزوقة . وذلك جرياً على طريقته الجميلة التي اتخذها في الاعلام الواردة في كتابه هذا . وجعله المدينة يمر نهر اسمه « أنيدر » ومعناه باليوناني : الذي لا ماء فيه . وذلك ايضاً تغبيطاً لطرافته في التصوير . —

٥ – في تجارة اهل الطور وعلاقاتهم
٦ – في طريقة سفر اهل جزيرة الطور
٧ – في العيد واحوالهم
٨ – في الفنّ العسكري في جزيرة الطور
٩ – في ديانات الجزيرة المختلفة

وكل هذه الامور لم يدركها الفارابي لانها مظاهر للهيأة الاجتماعية وهو لم يفكر قطّ بالدرس الاجتماعي كما قلنا.

* * *

فيمكننا اذاً ان نختم هذه المقابلة قائلين ان الفارابي درس موضوعه درساً فلسفياً محضاً فقصّر عن نظر رجل السياسة والادارة، والاجتماع. اما موروس فقد نظر الى مثاله نظر الاجتماعي فدرس موضوعه لا من حيث الفلسفة والمثليات بل من حيث الادارة، والحكومة، والتشريع، ليجعله مثالاً للحكم الانكليزي المضطرب في ذاك العصر. ومن ثمّ فلا يدفعنا الجهل الممزوج بالادعاء الى القول ان الكاتب الانكليزي استعان بالفيلسوف العربي، بل نحن لا نرى شيئاً في المؤلّفين اللهمّ الشبه الناتج عن معرفة الكاتبين «لجمهورية افلاطون» كما قدّمنا.

دير سينا وكنيستهُ

نبذة مقتطفة عن زيارة حديثة الى دير طورسينا

بقلم اللواء احمد شفيق باشا مدير مصلحة الحدود

توطئة

تلطف جناب مؤلف هذا الكتاب النفيس فارسل لنا نسخة متمنا الانظار بمحتوياتها الشائقة من تفاصيل سياحة باشرها في شهر يناير من العام ١٩٢٦ في صحراء شبه جزيرة سينا تقطعها لاول مرة بالسيارات وزار دير طورسينا ووصف كل مبانيه وما على مشارف الجبل من الآثار والكنائس. وقد امكنهُ ان يرسم بالفوتغراف كلّ المناظر التي استحسنها في سياحته ولاسيما في جبل الطور بعدد ١٢٦ صورة بديعة. فنثني على جناب المؤلف اطيب الثناء وننقل عنهُ وصفه لدير سينا وكنيسته، ونُحيل الى وصفها لسائح آخر نشرنا رحلتهُ في المشرق (٧[١٩٠٤]٩٥٨-١٠٠٣) قال شفيق باشا :